رواية

أرضُ اللّه

حكاية عمر بن سيّد
٥٧ عامًا في العبوديّة

أيمن العتوم

الناشـــــر

الإبـــداع الفكري
للنشر والتوزيع - الكويت

ebdaafekry
info@ebdaafekry.com
ebdaafekry.com

تــألــيــف | أيمن العتوم
00000000@00000000.com

تدقيق إملائي | ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
00000000@00000000.com

تصميم وإخراج | عبدالعزيز عصمت
abdulaziz@ebdaafekry.com

رقم الإيداع: 000 / 000
الرقم المعياري الدولي: 0-00-000-0000-000

الطبعة الأولى - يوليو 2020

هاتف: 22675321 - فاكس: 22675365
ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

جميع الحقوق محفوظة للناشر (شركة الإبداع الفكري)
(يمنع النسخ أو التصوير أو النقل أو النشر في موقع الشبكة الالكترونية
أو الاقتباس من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر
ومن يخالف ذلك يقع تحت طائلة الملاحقة القانونية)

(متى استعبدْتُمُ النّاسَ
وقد ولَدَتْهُم أُمّهاتُهم
أحرارا).

الخليفة الرّاشديّ الثّاني عمر بن الخَطّاب
كتاب فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)

إهداء

إلى أمّي الحبيبة...

إلى أمّي الّتي ملأتْ قلبي وردًا، وروحي عِطرًا، ورقّقتْ فِيّ ذلك الشّعور بالإنسان؛ بقضاياه العادلة، بحقّه في الحريّة، وبحُبّه مهما كان يختلفُ عنّي...

إلى قلبها الّذي وَسِعَ ما في الكون من أسًى فلمّا مَرّ على قلبها أينع، وما في الكون من قسوةٍ فلمّا مَرّ على قلبِها رَقّ، وما في الكون من ظلام فلمّا مرّ على قلبها أضاء...

إلى أمّي... رَجاء دعوةٍ ينفتح لها باب السّماء، فتصعد، فتستقرّ في ظِلّ العرش، ويكون لها ما بعدَها في الدّنيا والآخرة...

ابنكِ
أيمن..

(٠)

أي بُنيّ

لا أدري إنْ كان سيتمّ هذا الأمر، أم أنّ الله سيقضي بغير ذلك... على أيّة حال، حين يكون هذا المخطوط قد وصل إليك أكون - على الأرجح - قد غادرتُ الدُّنيا، وحينَ تقعُ عيناك على أولى حروفه ستكون عيناي قد وقعتا في الظّلام. وحينَ ينتهي بينَ يديكَ سأكون أنا قد انتهيتُ بين يدي الله. يا إلهي في هذه اللحظة أطلبُ رحمتَك!

لم أكنْ أعرف ما سيجري، المستقبل صفحة في كتابٍ لا يعلمه إلاّ الله، كنتُ ناعِمًا بحياةٍ جميلةٍ في بلادي، أكتبُ هذه الكلمات وقد جاوزتُ التّسعين، ربّما لن أتمكّن من إكمالها، ربّما يُعاجلني القدر بطَرقه بابي الّذي ظلّ يَطرُقه طَوال ستّين عامًا دون أنْ يدخل، كلّ ما أريدُه في هذه اللّحظة هو أنْ أقول لكَ: إنّني أحبّك، وإنّني تمنّيتُ أنْ تكبر بين يدَي... وإنّني حلمتُ ليالِيَ طويلة وأنا أضمّك إلى صدري، وأتشمّم رائحتك، وأهتفُ باسمك، وأشتري لكَ قميصًا عندما تكبر، وأركضُ أنا وأنتَ في البراري... ربّما واجهتَ حياةً قاسية أصعبَ من الحياة الّتي عشتُها، ولا أدري إنْ كنتَ لا زلتَ حَيًّا، أو حتّى أمّك ما زالتْ على قيدِ الحياة... كلّ الذّكريات الّتي عشتُها هنا في بِلاد الحُزن والخوف والموت ذابحة، كانتْ تقتلني في اليوم عشَرات المرّات. كيفَ

يُمكن تعريف الهلع والذّل والرّعب؟ كيفَ يُمكن وصف وحشيّة الإنسان؟ لو أردتُ أنْ أصف لك لحظة الوقوف بين الموت والحياة تحتَ رحمة بشريٍّ تحوّل إلى شيطان فلن أستطيع ذلك؛ دعني أقلْ لك إنّ هذا فوق طاقتي، وأنّني مهما أوتيتُ من محفوظٍ وقدرةٍ وكلمات فلن أقف على حقيقة المشاهد والأحوال الّتي عشتُها... كانتْ حلمًا... أعني تمنّيتُ لو كانتْ حلمًا. ولكنْ كيفَ يُمكن لستّين عامًا من العذاب أنْ تتحوّل إلى حلمٍ بمجرّد أمنيةٍ ساذجةٍ أو مُستحيلة... إنّني أستيقظُ في كلّ صباح وأنا أتمنّى أنْ تكون النهاية؛ نهاية العذابات، نهاية الظّلم، نهاية الأحزان، نهاية القمع، نهاية العبوديّة، ونهاية البشر الوحوش... بل نهاية الكون، لماذا لم يبعث الله لنا بزلزال أو ببركان أو بطوفان أو بحرائق تلفّ الكون، أو حتّى بطاعونٍ يحصدنا جميعًا كما لو كُنّا زهراتٍ يابسةٍ تحت أقدام جيشٍ من الوحوش، ويسحقنا تحته، الصالحين والطّالحين، ويذهب بالخبيث والطّيّب، ولا بأس، سيأخذ المظلومون حقوقهم هناك، يومَ يقفون بين يدَيه، ألم يقل هو ذلك؟!

لم يكنْ لديّ في البداية هنا أيّ شيءٍ يُمكنني أنْ أخطّ عليه ولو بضع كلمات، ماذا أفعل بهذه السّنوات القاسِيات الّتي مرّتْ عليّ، إنني أريدُ أنْ أتعافَى من ندوبها العميقة، فكّرتُ في الكتابة إليك، وهذا ما فعلتُ؛ أعرفُ أنّ بعضَ تلك الجِراح سوف تبرأ أو تتوقّف الذّكرى عن التّحرّش بها لو أنّني كتبتُ بها إليك، لكنْ أين أكتبُ وكيف؟ لم يكنْ مسموحًا لي ولا لغيري أنْ يحلم بأنْ يحمل قلمًا طَوال سنين سحيقة، عِوضًا عن أنْ يحصل على ورقةٍ أو رَقّ، لكنْ لا بأسَ، لديّ

دائمًا وسيلة للتّغلّب على ذلك، لقد حفرتُ بأظافري على الجُدران تفاصيل حياتي هنا، وأحداثًا كان لا يُمكن تصديقُها لولا أنّني عشتُها بنفسي، كلّما هممتُ بحفرِ سطرٍ جديدٍ على الجُدران وجدتُني دون تخطيطٍ أحفر كلمة: «أحبّك»! هل كان الحبّ وسيلتي للنّجاة؟! أُمُّكَ لم تغبْ عن بالي، كانت كلمة «أحبّك» تتوزّع بينكما، وكانتْ كذلك تتشكّل على هيئة أختي، ظلّتْ أختي نقطةَ ضعفي، أعترفُ بذلك، لو كانتْ لكَ أختٌ وكبرتَ معها ستُدرِك معنى ما أقول؛ الأخت رائحة الشّذى في دُخان الأمكنة، وشجرة الظّلّ في لَهَب الهجير.

بعد أربعين عامًا، صار بإمكاني الحصول على بعضِ الأوراق، كانتْ شحيحةً في البداية، الآن لديّ منها ما يكفي لكي أقول لك كلّ شيء، كل ما أطلبه من الله في هذه اللّحظة، أنْ يُمهلني حتى أكتب لك كلّ ما في بالي.

إنّ الذّكريات الّتي هربتُ منها في الماضي هي الّتي تُطاردني الآن، أسوأ ما في الذّكريات المُرّة أنّها قد تغفو ولكنّها لا تموت، قد تنساها ولكنّها لا تنساك!

ليسَ مهمًّا أنْ أكتبَ كثيرًا هنا، كم مرّةٍ حاولتُ أنْ أركضَ في السُّهوب فوجدتُ قدمَي غائصتين في الطّين، وكم مرّةٍ حاولتُ أنْ أرى قمر السّحاب، فوجدْتني أغرق في الظّلام.

إنّ قُواي لا تُساعدني على أنْ أكتبَ كثيرًا في اليوم، غير أنّني آمل ألا أرحل دون أنْ أكمل كتابة كلّ ما في صدري إليك، إنّه تاريخي،

وتاريخ وطني، وتاريخكَ أنتَ إذا كان الله ما زال يُعطيكَ القدرة على أنْ تمشي في الأدغال، وتنتقل بين الأشجار، وتاريخ أبنائك، وأحفادك من بعدِك... هل يُمكن أن تصل هذه الكلمات إليكَ فتعيدَ نشرَها، أو تعهد بها إلى مَنْ يملكون خطوطًا عربيّة جميلة فيُعيدون نسخها، وتوزيعها على أبناء وطننا، على الغرب الإفريقيّ السّاحر، هل يُمكن أنْ يقرؤوا منها تحت شجرةٍ في فضاءٍ فسيح عند الغروب والشّمس تميل إلى الرّحيل صفحةً أو صفحتَين على مسامع أيٍّ كان ولو كان السّكون أو الفراغ نفسه؟! إنّه الغروب، كان ساحرًا شفيفًا هناك، ولكنّه قاتلٌ غامضٌ هنا... كلّما تذكّرتُه بكيتُ، بكيتُ مرّتين، من الشّوق مرّة، ومن الألم مرّة.

هنا غنّيتُ وشدوت، هنا أسيتُ وفرحتُ، وهنا ظللتُ أنظر من نافذةٍ يتيمةٍ إلى عالَمٍ ليس لي، وأنا أؤمّل نفسي بأنّني يومًا ما سأراك أو أرى أمّك، ولا أدري كيفَ أمكنني تخيُّلِ مستحيلٍ كهذا، ولكنّ شدّة التّعلّق تنسج الأوهام، أليسَ في الوهم بعضُ العَزاء؟!

لقد عشتُ حياتي هنا ميّتًا، حتّى إنّني فكّرتُ في أن أضع حدًّا لهذا الحياة البائسة أكثر من مرّة، ولكنّ إيماني كان يظهر فيقطع ذلك الخيط وينُهي المسألة، أصبرُ فأنسى أو أتناسَى، أضربُ صفحًا عن الأفكار السّوداء، ولكنّها تعود للظّهور كصبّار عنيدٍ ينبتُ في صحراء قلبي، إنّ الشّيطان لا ينام.

لن أقول لك إنّني أتذكّر كلّ شيءٍ، فكثيرًا من الّذي حدثَ

نسيتُه، أو أَنسانيه طُول العهد، لكنّ الذّاكرة أبقتْ على ما يكفي لأنْ أكتب لك المُجلّدات والكُعوب، ستجدُ بعضَ ما أكتبه غريبًا أو غامِضًا أو غير معقول أو ناقِصًا أو فيه بعضُ الفراغات والاختِلالات، أنتَ - في الحقيقة - مَنْ سيسدّ تلك الفراغات؛ بروحك، ستُكمل ما نَقَص، وتشرح ما كان غامضًا، وتجعل معقولاً ما كان غير معقول... إنّكَ ظلّي، أليسَ الولدُ ظِلّ أبيه؟! إذا كنتَ لا تزال على قيد الحياة، فأُرجّح أنّكَ قد بلغتَ الآن من العمر ما يقرب من السّتين؛ هل لك أبناء وحَفَدة؟! وإذا وصل إليكَ هذا المخطوط - وهذه أمنيتي الوحيدة الأخيرة - فسأكون قد رحلتُ، ماذا تبقّى من العمر في حياة عجوز جاوز التّسعين في كوخٍ بالٍ من القشّ يُحتَضر وحيدًا على فراش الموت؟!

بلادن - كارولينا الشّماليّة

أوائل عام ١٨٦٣م

(١)

عَمّ يتساءَلون

إنّه الظّلام، كثيفٌ حتّى لا أرى يدَيّ، ولا أحسُّ بِهِما، مُلقًى على الأرض مع عشراتٍ آخرين كأنّنا كِلابٌ جرباء، يدايَ مُقيّدتان بسلسلةٍ طويلة ثقيلة، سمعتُ صوتَها عندما حرّكتُهما، مُحاولاً أنْ أستجلي الوضع الّذي نحن فيه حرّكتُ رجلَيّ، فارتطمتا مع الحلقة الّتي تلتفّ عليهما برأسِ رجلٍ آخر، فَهَمهمَ مُتألّمًا، يبدو أنّني حرّكتُهما بطريقةٍ آذتْه، أردتُ أنْ أعتذر له، لكنّ الكلمات ذابتْ فوقَ لساني.

لم أدرِ كم عددنا في قَاع هذه السّفينة اللّعينة، رحتُ أستعينُ ببعضِ الآيات الّتي تُساعدني على الصّبر، أسترجعُ السُّور الّتي كنتُ أردّدها مُتنغّمًا وأنا طفلٌ علّني أقاوم الجزع والخوف من المجهول الّذي ينتظرنا؛ لكنْ بعضُ الخوف أكبر من الكلام، لم ينجح الكلام هذه المرّة في تسكين مخاوفي!

في الرابعة أو الخامسة بعثَ بي أبي إلى الكُتّاب. كُنّا نرتّل خلفَ الشّيخ: «عَمّ يتساءَلون». كانتْ هاتان الكلمتان أوّلَ ما نطقتُ من حروف العربيّة، وأوّل ما ردّدتُ خلفَ الشّيخ. لكنّ أبي قال للشّيخ: «ابدأ معه من (ألم. ذلك الكتاب)؛ فإنّ القرآن مثل الموج، مَنْ سار مع اتّجاه الموج وصل، ومَنْ سار عكسه أو غالَبه غَرِق». أسمعُ نُواحَ امرأةٍ في الزّاوية، وبُكاءَ طفلٍ في حضنها، ونشيجَ آخرَ قريبٍ

منّي، وروائحَ خانقة، وهمهماتِ شبابٍ يبدو أنّهم مُكمّمو الأفواه، وأصواتَ آلامٍ لا يُمكن وصفُها لا أدري عمّنْ تصدر، وإنْ قَدّرتُ أنّها لثكالَى مسكينات... في اليوم التّاسع فكّوا قُيودَنا وأصعدونا من القَبو إلى ظهر السّفينة، قالوا لنا: «عليكم أنْ تستحمّوا؛ إنّ روائحكم النَّتِنة لم تعدْ تُطاق. هيّا اخرجوا من هنا». قُمنا كما يقوم الموتى من قبورهم، أكثرُنا كان يتعثّر ويسقط، فتندّ منه آهة، أو صرخة، فيُعاجِلها صوتُ سوط، وصوتٌ غليظٌ آخر بأنْ نخرس. صعدْنا درجًا خشبيًّا، عددتُها؛ إنّها تسع درجاتٍ ونصف الدّرجة، في الأعلى كان هناك رجلٌ أبيض، يحمل بندقيّة في يَده، وكانت هناك بندقيّتان على كتفَيه، وكان إلى جواره آخَر، يبدو أنّه مُكلَّفٌ بنزع الغِطاء عن عيوننا، عرفتُ ذلك حينَ فعل ذلك معي، حاولتُ أنْ أتفادَى بيدَيّ انديِاح موجة الضّوء الّتي أغرقتْ عينَيّ، لكنّ يدَيّ كانتا مُقَيّدَتين، فخفضتُ رأسي، وأغمضتُ عينَيّ، واحتجتُ إلى أنْ أفتحهما وأُغلقهما مرّاتٍ عِدّة قبل أنْ تعتادا على ابتلاع تلك الأمواج شيئًا فشيئًا. دفعني من ظهري العاري وهو يصرخ: «اصعدْ أيّها الحشرة... اصعدْ». عانيتُ وأنا أصعدُ الدّرجات، كانت القيود الّتي في رجلَيّ ثقيلة، وكان عليّ أنْ أجرّهما جَرًّا، وأحتمل بعضَ الثّقل وأنا أسحبُ جسد الرّجل الّذي يَليني. وقفْنا أخيرًا على ظهر تلك السّفينة، كان الهواء هنا لذيذًا ومُنعِشًا مقارنةً مع الهواء الفاسد الّذي كان يقطع أنفاسَنا في القاع، ملأتُ رِئَتَيّ منه وشعرتُ بالنّشاط، دفعونا إلى طرف السّفينة الخلفيّ، أرسلتُ طَرْفي جِهة الغرب، إلى حيثُ سواحل السّنغال، لم

نكنْ قد أبحرْنا في هذه الأيّام التّسعة بعدُ، يبدو أنّهم كانوا في مرحلة تجميع أكبر عددٍ مِنّا. كُنّا على جزيرة (غوريه) القريبة من السّاحل الغربيّ، جُزءٌ مؤلِمٌ من بِلادِنا الجميلة. فجأةً رأيتُ أناسًا يركضون على الشّاطِئ، كانوا يلوّحون بأيديهم في الهواء ويقفزون، لا أدري إنْ كانوا سُعداء أم تُعساء؟ بعضُ القَفَزات في الهواء يختلطُ فيها الفرح بالحُزن، والألم بالأمل.. هل كانتْ زوجتي من بينهم؟! يبدو أنّها كذلك، هل رأيتُها بالفعل أم أنّني تخيّلتُ ذلك؟ خفق قلبي بشدّة، قفزتُ، أو حاولتُ أن أفعل، فجذبتْني القيود إلى الأسفل. رأيتُ أشجارًا بعيدة، إنّها تُشبه أشجار (فوتا)، الأشجار الّتي قضيتُ حياتي السّابقة كلّها بين أحضانها، لقد رأيتُني، رأيتُني على الحقيقة هناك، يومَ كنتُ طفلاً، طفلاً سأتمنّى في كلّ لحظةٍ تالية أنّني لم أكنْه، أو لم أكبر، أو أنّني لم أجِئ إلى هذه الحياة أبدًا، أو أنّ نُطفةَ أبي في رَحِم أُمّي شكّلتْ مخلوقًا آخر غيري!

أمام الطّرف الخلفيّ للسّفينة، كانت هناك دلوٌ كبيرةٌ فارغة، في قافلة العبيد الّتي وقفْنا فيها، كان يتقدّمني شابّان أصغر منّي قليلاً، قام الرّجل الأبيض الواقف أمام الدّلو، بفكّ قيود الشّاب الّذي في المقدّمة، نزع في البداية قيودَه عن يدَيه، ثُمّ فَكّ الحلقة الحديديّة الّتي تضيق على كاحل قدمَيه، ثمّ صرخ به: «اقفز إلى الدّلو أيّها القَذِر».

لم أدرِ لماذا طلبَ منه أنْ يقفزَ فيه، لكنّني كنتُ مشغولاً بالنّظر إلى تلك الأشجار البعيدة، ثُمّ رحتُ أغوصُ في الذّكرى، أغوصُ في تلك الأشجار، غصتُ عميقًا، وفي تلك الأدغال رأيتُني.

(٢)

أجدادُكَ كانوا يَلبسون مِثلَهما

يولَد الإنسان حُرًّا، ثُمّ يأتي أخوه الآخَر - لسبب لا تُدركه حتّى الآلهة - فيجعله عبدًا، ويسحقه تحت أقدامه سحقًا! يُولَد الإنسان بريئًا ثُمّ تُحوّله السّلطة إلى مُجرم، ويولَد مُتسامِحًا ثُمّ يحوّله السّوط الّذي يملكه في يده إلى طاغية. تحوّلات الإنسان تدعو إلى الدّهشة؛ كيفَ يُخبِّئ هذا الطفل البريء كلّ هذه الوحوش في داخله؟ مَنْ يستطيع أنْ يتنبّأ بأنّ هذا الحَمَل الوديع يكمُنُ خلفَ وجهِه اللّطيف ألفُ ذِئبٍ مُفترس؟ وبأنّ هذه البراءة لم تكنْ إلاّ قِناعًا سوف تتكفّل سواقي الزّمن بنزعه، فتظهر تحته الوجوه المُرعبة كلّما دارتْ تلك السّواقي دورتَها مع الأيّام!

نحن نعيشُ على النّهر، النّهر الصّغير المُتفرّع عن النّهر الكبير. النّهر صديقُنا، قضينا معه كلّ سنواتنا الرّائعة. إنّه يجري في قريتنا كما يجري الدّم في عروقنا، لا حياةَ خلفَ النّهر، لا حياة دون النّهر، ولكنّني سأكتشف في المستقبل أنّ له وجهًا قبيحًا، ولا أدري إنْ كان هذا هو وجهه الحقيقيّ، أم أنّ الإنسان - على عادته - هو الّذي ألبسه وجهَه القبيح!

هذا التّاريخ الّذي أحكيه لكم، قد يبدو لكم أنّه تاريخي، لكنّه ليس كذلك بالمعنى الحرفيّ، إنّه تاريخ شعبٍ ووطن ونهر، إنّه

يتكـرّر، أعنـي تتكـرّر حكايـاه، فالتّاريـخ الّـذي ذهـب لـن يعـود إلاّ في الحكايـا، كان عـلى الشّـعب أنْ يحمـل السّـلاح، وكان عـلى الوطـن أنْ يحمل حامـلي السّـلاح، وكان عـلى النّهـر أنْ يُغرقهـما معًـا، ولا ينجـو إلاّ صانعـو الحكايـات، إنّهـم ذاكـرة أوطانهـم، وأنـا؟ أحـد صانعـي هـذه الحكايـات!

صحـوتُ مـن عـالَم الغيـب إلى عـالَم الشّـهادة وأنـا في الرّابعـة. بـدأتُ التّذكّـر في هـذه السّـن. لـو أنّكـم شـهدتُم ما شـهدتُه لعرفتُـم كم كان عالَمـي سـاحِرًا ومُدهِشًـا! كنـتُ أنـام أيّـامَ الصّفـو في بَسـطة البيت الشّـماليّة، الجهـة الّتـي تُقابـل المدخـل الرّئيسيّ في الطّـرف البعيـد مـن البيـت، كانـتْ غرفتـي خلـفَ البسـطة تمامًـا، لم يكـنْ الأولاد في قريتنـا ينـام الواحـد منهـم في غرفـةٍ تُخصّـص لـه وحـده؛ عـددٌ كبـيرٌ ينـامُ في الغرفـة الواحـدة؛ كانـوا مُعوزيـن، أمّـا أبي فـكان بمقـدوره أنْ يُخصّـص لي عـشر غـرفٍ إذا أردتُ، وأختـي كذلـك. كان يُحبّهـا، ربّـما أكثـر منّـي، كانـت أميرتَـه المُدلّلـة، كان اسـمُها (آمنـة)، وكان يُدلّلهـا (ميمـي)، وكانـتْ تكـبرني بثلاثـة أعـوام، ولم يكـنْ أحـدٌ مـن الأبنـاء يتقاسَـم البيـتَ الفسـيح سِـوانا. أمّـي اسـمُها (سُـخنا أستو) الّتـي كانـت تعنـي بالعربيّـة (عائشـة)، وكانـتْ ترعَـى أمـور البيـت، وتحنـو علينـا أنـا وأختـي كأنّهـا تخـاف مـن شيءٍ مـا؛ عندمـا وُلِـدت أختـي آمنـة ذهبـتْ أُمّـي إلى الإمـام في قريتنـا، وطلبـتْ منـه أنْ يصنـع لهـا (حِـرزًا)، لم تكـنْ وحدهـا مـن نسـاء القريـة مَـنْ تفعـل ذلـك، كثيراتٌ كُـنّ يـزُرن الإمـام في صومعتـه الّتـي تلتصـقُ بالمسـجد، ويطلبْـن منـه مثـل هـذا الحِـرز. كان الإمـام يكتـب فيـه بعـض آيـات القـرآن، مـن سـورة الملـك أو مـن آيـة الكـرسيّ أو المعـوّذات، وتُلـفّ الآيـات في ظَـرفٍ جلـديّ

بُنّي اللّون، بحجم قبضة الطّفل الصّغيرة، ويُثبّت بخيط على خصر الأطفال تحت الثّياب، ويظلّ ذلك (الحِرز) أو (التّميمة) أو (الحِجاب) على خصر الطّفل لا يُنزَع عنه إلاّ عند الاستِحمام حتّى يكبر الطّفل ويجوز الرّابعة عشرة من عمره، فحينئذٍ يُنزَع، ويكون الطفل حينئذٍ قد صار في عمرٍ يسمح له بأنْ يُدافع عن نفسه! كان أبي يمنعها من ذلك، ويقول: لا يحمي إلاّ الله. وكانت تتوسّل أحيانًا إليه أنْ تضعه لآمنة إذا لم يقبل أنْ يضعه لي، فالصّغيرات ضعيفات، ولا بُدّ من شيءٍ يحميهنّ من الوحوش والهوام وكلّ ما يزحف على الأرض مِمّا يؤذي. ولكنّه كان يتوسّل هو الآخر لها، ويقول: إنّني أحبّها أكثر مِمّا تُحبّينها، وأخاف عليها بقدْر ما تخافين أنتِ عليها، ولكنّ ذلك كلّه خزعبلات، إنّه إذا نزل قضاء الله فلن يحميها حرز، وإذا أراد الله بالإنسان أمرًا فلن يدفعه عنه حِجاب ولا تميمة، ولكنْ يدفعه حُسن الظّنّ بالله والدّعاء. وكانتْ تهزّ رأسَها أحيانًا لتبدو أمامه أنّها اقتنعتْ، فإذا غابَ أبي عن ناظرَيها، وَضَعَتْه لها في غفلةٍ منه.

كانتْ أُمّي تُبالغ في الخوف علينا، وسمعتُ أبي يقول لها ذلك أكثر من مرّة: «إنّ هذا الحرص لن يصنع من آمنة امرأةً قادرةً على إدارة شؤون بيتها وزوجها وأطفالها في المستقبل، ولن يصنع من عمر رجلاً شُجاعًا ولا قويًّا». وكثيرًا ما كنتُ أراها في طفولتي تبكي دون أنْ أدري لماذا، وكانتْ تمسح دموعها بطرف كُمّها، محاولةً إخفاءَها عنّي أو عن أُختي، ولم أكنْ في تلك السّنّ أملك القدرة على سؤالها: لماذا تبكين يا أمّي؟ فكنتُ أكتفي بالجلوس إلى جانِبها صامتًا، وأحيانًا

أضع رأسي على صدرها، فتُمرّر يدَها فوق شَعري المُجعّد، وهي تُجاهدُ في إيقافِ دموعها، الّتي يسقطُ بعضُها فوقَ خدّي فأحسّ بها سخينةً حارّة. لماذا كانتْ تبكي أمّي؟! ظلّ هذا السّؤال مُعلّقًا طَوال حَياتي؟!

لقد قَدِمتُ إلى الدُّنيا في منتصف ثورة الشّيخ (سليمان بال)، حينَ خرجتُ من رحم أمّي إلى رحم الدّنيا عام ١٧٧٠م، كان قد مضتْ خمسةُ أعوامٍ على قيام تلك الثّورة الّتي تُطالب بإعادة حُكم الأئمّة، وحينَ صرتُ في السّادسة من عمري كان قد استتبّ له الأمر، وأسّس دولة الأئمّة، وتوالَى على حُكمِها كثيرون.

خلفَ البسطة بمسافةٍ قليلةٍ تُقطَع مشيًا على الأقدام يجري هذا النّهر الصّغير؛ المُنفتِل عن نهرنا الكبير الّذي يُشكّل حدود بلادنا من الشّمال، كان هذا النّهر الصّغير يجري فِيّ قبل أنْ يجري في قريتنا، إنّه النّهر الّذي عشتُ أيّامه كما لو كان من أنهار الجنّة. النّهر وادع، عَرضُه لا يزيد عن مسافة أربعة قوارب أو خمسة، يجري بهدوء كأنّه فِضّة سائلة، إلاّ في المنعرجات فيجري مُسرعًا، أو حينَ تعترض انسكابَه صخرةٌ هنا أو هناك، فيثور، ينطح الصّخرة برأسه، ويرتفع عالِيًا بمقدار ارتفاع شراع مركبٍ صغير، ويدور خلفها بسرعة، ثُمّ يعود إلى طبيعته بعد أنْ يتجاوز الصّخرة، يمشي بهدوء واعتِدال وثِقة، كأنّه أنهى مهمّة ما، أو كأنّه ينفضُ عن ساقَيه الرّذاذ، ويستريح من بعدِ تَعَب. من هنا في اللّيل أستطيع أنْ أميّز الأصوات، وأرى الهِلال

وجذوع الأشجار العالية الّتي تقف بيني وبينه، كأنّها تريدُ أنْ تُلوّن بالسّواد صفحته، وأشاهدُ السّحب الّتي تعبر صفحة السّماء.

كان لدينا سَماء عالية ومُسالِمة، فكان لدينا حُلم. كان لديّ أخت، فكان لديّ رأفة. كان لديّ أمّ فكان لديّ رحمة، كان لديّ أبٌ فكان لديّ أمان. نعم؛ كان لديّ الحُلم والرأفة والرّحمة والأمان، وماذا أريدُ أكثرَ من ذلك؟!

اللّيالي في الصّيف حارّة، لكنّها على النّهر تلين، وللّيالي آهات، وحكايات، وأسمار، وأقدار، وتراتيل، وأسرار، وبَوح، وغِناء، وبُكاء. كانتْ آهة اللّيل موسيقاي، أُناغِمُها كما لو كانتْ قصيدة لعنترة، أو مقطوعةً لأبي العتاهية، فيما بعد في الكُتّاب عرفتُ هذين الشّاعرَين، وعرفتُ آخَرين، أمّا لماذا أذكرهما هنا دون سِواهما، فلأنّ عنترة كان يُشبه جلودنا السّوداء، وأبو العتاهية يشبه أرواحَنا الصّافية. وشِبه الشّيء مُنجذبٌ إليه.

آلاف المرّات صحوتُ قبل طلوع الشّمس، كنتُ أنام قبل أنْ يمدّ اللّيل كامل جناحَيه جاثِمًا فوق البيوت والبشر، وأصحو قبل أنْ يطير، كانت ساعات الفجر هي ساعاتي المُفضّلة، على مدار ثماني سنوات، هي السّنوات الّتي بدأتُ أعرف فيها معنى الشّروق وأنا في الرّابعة حتّى الثّانية عشرة قبل ذهابي إلى (تُوبا) وغيابي الطّويل عن أهلي.... أقول على مدار هذه السّنوات الثّماني لم أُفوّت مرّة واحدة شروق الشّمس، باستثناء شهرَين عكفتُ فيهما على

نفسي في البيت لا أخرج من باب غرفتي أيّام الفاجعة الّتي حلّتْ بأبي وأمّي!

ولقد كنتُ أجلسُ مع الفجر في ساعاته الأولى، أُزحزِح معه عباءة اللّيل عن وجه الشّمس، وأشهدُ مع الله قدومها من الشرق القصيّ، كانتْ تصعد وأنا أصعدُ معها كأنّما وُلِدنا بعد موت، وجِئنا بعد طول غِياب، وكنتُ أشعر بسعادة تجتاح كِياني كُلّه لا أملك لها اليوم تفسيرًا... وحتّى بعد أنْ صِرتُ في (تُوبا) الّتي أقيمتْ من أجل أرواحنا وطقوسنا وعلومنا الدّينيّة فإنّني لم أكنْ لأغفل عن هذا الكنز الثّمين، حتى وإنْ اضطرّتْني بعضُ الصّلوات إلى أنْ أظلّ ساهرًا إلى منتصف اللّيل.

في البسطة الّتي هي بمساحة غرفتي، تَشكّلَ عالَمي، النّهر من هنا يظهر بوضوح، من هنا تبدو قوراب الصّيّادين الصّغيرة، وهم يدفعونها من الضّفة إلى عُمق النّهر، من أجل أنْ يلتقطوا أرزاقهم من أفواه السّمك الجائع. وفي البسطة سجّادة الصّلاة الّتي عوّدني أبي أنْ أصلّي فوقَها صلوات النّوافل، أمّا صلوات الجماعة فكانتْ غالبًا ما تتمّ في مسجد قريتنا القديم، ومسبحة فيها تسعٌ وتسعون حبّة من الخرز الخشبيّ، رافقتْني فيما بعد، وجُبّةٍ مثل تلك الّتي يلبسُها أبي، وعِمامة، ولم يكنْ أبي يسمح لي أنْ أصلّي دونهما. وكان يقول: «أجدادُك الّذين جلبوا النّور معهم من مكّة، كانوا يلبسون مثلهما». ويضحك ضحكة خفيفةً تنمّ عن دهشةٍ وإعجاب، وهو يراني أضع العِمامة فوقَ رأسي ولم أتجاوز الخامسة، ويُردِف: «غدًا تكبر، وتُصبح إمامًا